قراءة في ومضة "طيبة" لحنان عثامنة

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر

تتخذ ومضة "طيبة" لحنان عثامنة شكلَ حوارٍ بين شخصيتين وتأتي مروية بضمير المتكلم الذي يمثل الشخصية الأساسية هنا، وتقوم هذه الشخصية/الراوية بدورها بنقل حوارها مع شخصية أخرى من الواضح أنها رجل. إذن تمثل هذه الومضة حوارا بين رجل وامرأة. تقول هذه الومضة: **"قلت: قد زهدت بتفّاحك. قال: آتيك بجنة الأرض ! قلت له: خذ بعضك واستدر. وفي نفسي: ....كم سأنتظر.....؟"** تبدأ الراويةُ الحوارَ وتورد كلامها وكلام الرجل الذي تتوجه إليه بالحديث بدون علامات تنصيص. وبعيدا عن الفعلين "قلتُ" و"قالَ" اللذين يتم من خلالها نقل الكلام ويمثلان الجانب السردي في هذه الومضة، وهو سرد أقوال وليس سرد أفعال أو أحداث.

تتكون هذه الومضة من ثلاث جمل حوارية: جملتان منها على لسان الراوية وجملة على لسان الرجل الذي تخاطبه هذه الراوية. بعيدا عن الخطأ اللغوي في الجملة الحوارية الأولى، فالفعل "زهد" يليه حرف الجر "في" أو "عن" وليس الباء، تبتدئ الراوية الحوار وتعلن عن إعراضها عن التفاح الخاص بالرجل هنا. مجرد ذكر التفاحِ واقتران هذا الذكر

"بجنة الأرض" يحلينا إلى العلاقة الأزلية بين آدم وحواء أو المرأة والرجل وقضية خروجهما من الجنة. وهذه الإحالة ليست إحالة حرفية، بمعنى أنها لا تنقل لنا قصة آدم وحواء نقلا مباشرا، بل تتلاعب بطرفي العلاقة هنا. تروي التفسيرات الشعبية لقصة الخروج من الجنة أو الهبوط إلى الأرض في القرآن أو السقوط في العهد القديم أن حواء هي التي أخرجت آدم من الجنة وأنها هي التي أكلت من الشجرة المحرّمة. ولكن الراوية هنا تقرن التفاح بالرجل وكأنها تلومه على أنه أخرجها من الجنة، سواء أكانت الجنة بالمعنى الأصلي أم الجنة الخاصة بالحياة المشتركة ما بين الرجل والمرأة هنا. والزهد قرين الإعراض والرفض والابتعاد والإحجام، ولا تحدد الراوية هنا سببا لهذا الإعراض، وإنما تربطه فقط بالإعراض عن تفاح الرجل، بما في هذا التفاح من رمزية تنفتح على الكثير من المعاني بداية من التفسير الديني مرورا بالتفسير الحياتي المشترك ووصولا إلى التفسير الجنسي، فأكل التفاح – أو أي ثمرة كانت في الجنة – بدأت معها رحلة البشر الجنسية وانكشاف عوراتهم أو إحساسهم بالعري. وعندما ننظر إلى رد الرجل على الراوية، نجد أنه يعرض عليها أن يأتيها بجنة على الأرض. والفعل "آتيكِ" يوحي بالإفراط في الوعد إذا فسرنا كلام الرجل تفسيرا مباشرا، كما يوحي بدلالات ربما تريد الراوية أن تلفت انتباهه إلى الإفراط فيها وبالتالي زهدت هي عنها. ويبدو أن الراوية استحضرت هنا الفعل "أتى" في سياقات معينة من

القرآن الكريم مثل "أتأتون الفاحشة" أو "فإذا تطهَّرنَ فأتوهُنَّ من حيث أمركُم اللهُ". وربما لذلك جاء ردُّ الراوية عليه طالبة منه أن ينصرف". وهذا الرد يوحي بأن الرجل لم يستوعب كلامها في بداية الومضة ومصارحتها له بأنه زهدت في تفاحه بكل ما يمثله هذا التفاح من معانٍ.

ولكن الومضة لا تتوقف عند هذا الحد: فمع جملتها الأخيرة وطلبها منه أن يبتعد عنها أو يخرج من حياتها، تنقل لنا كلاما جانبيا يدور في رأسها ولا توجهه إلى هذا الرجل مباشرة، وهذا الكلام يدل على أنها ستنتظر طويلا وكأنها تندم على أنها طلبت منه أن ينصرف. ويُرجعنا ذلك إلى كلامها الأخير الذي طلبت فيه من هذا الرجل أن يأخذ بعضه ويستدير، فنقف أمام ظاهر الكلام وباطنه، أو معناه اللغوي المباشر أو السطحي والمعنى غير المباشر أو المقصود أو المعنى التداولي للكلام في السياق الذي يجمع الراوية وهذا الرجل. فتعبير "خذ بعضك واستدر" يدل على أنها تطلب منه الانصراف والابتعاد، كأن نقول بالعامية المصرية: "وَرِّينِي عَرْض كِتَافَك". ولكن يبدو أن الراوية تستعمل اللغة استعمالا خاصا هنا، كأن تلعب مثلا على المفهوم الأصلي للاستدارة بمعنى عودة الشخص أو الشيء إلى الموضع الذي ابتدأ منه، والمقصود هنا العودة إلى ما قبل أكل/قطف التفاح. وكذلك الأمر بالنسبة لـ "خذ بعضك"، فهو يوحي بأنها تريد منه أن يستبقي بعضا/جانبا من شخصيته ويأخذ الباقي بعيدا عنها، أي أن يتخلص من العيوب التي تجعها تزهد فيه.

تقوم هذه الومضة على توظيف الحوار الدال المكثف الذي يكشف مكنون الشخصيات ويرسم ملامحها بدقة من خلال كلامها دون الاعتماد على السرد الذي ربما أتى طويلا وقد يُخرج النص من حدود الومضة إلى القصة القصيرة جدا أو القصة القصيرة لو قامت الراوية بسرد كل مدلولات الحوار ولم تقم بنقل الحوار لنا مباشرة في الومضة. كما أن هذه الومضة تحتوي على شخصيتين متميزتين عن بعضهما بعضا ولهما ملامح واضحة. وترسم لنا صورة راوية من لحم ودم نرى حزمها ولغتها الواثقة أمام الآخر/الرجل هنا وفي الوقت ذاته تنقل لنا حيرتها وترددها وضعفها البشري من خلال فكرة الانتظار المبهمة التي ترد في صيغة استفهامية ربما تتناقض ظاهريا مع الحزم والثقة اللذين يوحي بهما كلامها السابق في الومضة. وبالنسبة لعنوان الومضة، جاء مستقلا عن النص، فالنص مكتمل قصصيا وفنيا بدونه. ولكن العنوان قد يؤخذ عليه أنه ربما لا يكون في مستوى النص، بمعنى أن "الطيبة" الواردة في العنوان ربما كانت تفسيرا قاصرا لا يستطيع أن يستوعب رحابة الومضة ورمزيتها واتساع معناها الإنساني.

والومضة التي تقوم على الحوار بطبعها ذات مدى زمني قصير، وهو الزمن الذي يستغرقه الحوار لا أكثر ولا أقل. وهو هنا لا يتعدى لحظات لأن حجم الومضة في حد ذاته يفترض قصر الحوار وبالتالي قصر الزمن الذي يستغرقه هذا الحوار. وتقوم هذه الومضة بتوظيف

شخصيتين فقط لأن الحوار في الومضة القصصية بوجه عام لا يحتمل الكثير من الشخصيات. ومن الملاحظ هنا أن هذه الومضة مروية بضمير المتكلم، والسرد هنا في حده الأدنى ويتمثل في الفعلين "قلتُ" و"قال" و"قلتُ له" وعبارة أخرى تكشف عن نفسية الراوية ومدى اضطرابها وقلقها بالرغم من ثباتها وحزمها الظاهريين: "وفي نفسي". وتنتهي الومضة نهاية استفهامية تنقل لنا الصراع الدائر داخل شخصية الراوية، وهو استفهام يكشف لنا أن الراوية ذاتها تدرك جسامة العبء الذي وضعته على عاتق الرجل هنا، فهو عبء قد يجعله يغيب طويلا.

obeikandl.com